

الباب الثاني

المدبير الذري في القرون الأولى
«تمود .. وقوم لوط وأصحاب مدين»

- * الرسالة والرسول
- * تدمير ملكي الصحية
- * التدمير الذري
- * وصف كارثة نجاذاكي
- * بلغة القرآن الكريم

الفصل السابع

الرسالة والرسل

تمهيد :

خلق الله الانسان ثم نفخ فيه من روحه ففضله بذلك على كل خلائق الأرض ، وعلى كثير من خلائق الموالم الأخرى . وقال في شأنه :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (الاسراء : ٧٠)

وتميز الانسان بنعمة العقل التي ارتبطت بها حرية الارادة والاختيار ، فسا بذلك عن انبهاث المعجاوات والجماد المسخر . وقد أودع الله في الانسان طاقات وغرر مخنفت ، يستطيع بها ان يرقى الى عالم الملائكة او يهوى بها الى عالم الشياطين . ولما كان الصانع أعلم بصنعتة كان من المنطق الا ينصلح حال الانسان الا بمنهج الهى يهديه سبل الحق والخير والأمن .

ومن رحمة الله بخلقه ، حكمته فيهم أن أرسل اليهم رسلا منهم اصطفاهم وهو - سبحانه - أعلم بخلقه وبمشهم بالمنهج الالهى الذى يقوم على ركنين أساسيين :

الأول : ايمان بالله ، عصبه التوحيد الخالص الذى لاشبهة فيه .

والثانى : عمل صالح وفق سلوك قويم يحفظ الحقوق ويؤدى الواجبات .

تلك سنة الله في خلقه منذ هبط آدم وتلك قوانينه وكلماته :

« يا بني آدم : اما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

(الاعراف : ٣٥ - ٣٦)



لقد عاشت البشرية على هذه الأرض مئات القرون ، وتعاقب فيها الكثير والكثير من رسل الله ، قص القرآن بعضا منهم ، وترك قصص البعض الآخر بعد أن أشار اليه :

« انا اوحيانا اليك كما اوحيانا الى نوح والنبيين من بعده ، واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتيننا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً »

(انشاء : ١٦٣ - ١٦٥)

لقد جاء رسل الله الى البشرية كثيرين ، لأن قرونها المتعاقبة كانت كثيرة لا يعلمها الا الله :

« الم ياتكم نيا الذين من قبلكم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم الا الله ، جآتهم رسلهم بالبينات » . (ابراهيم : ٩)

ولنا أن نتوقع أن يكون رسل الآخرين أكثر من رسل الأولين ، نظراً لتكاثر البشرية واضطراد نموها الذي يتم غالباً وفق متواليه هندسية تجعل الأرقام كثيرين ، يحتاجون الى رسل كثيرة .

ويؤكد القرآن الكريم أن سيل الرسالة الالهية لم ينقطع في الأمم عبر القرون :

« ولقد بعثنا في كل امة رسولا : ان اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت » (النحل : ٣٦)

« انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وان من امة الا خلا فيها نذير » (فاطر : ٢٤)

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ،
وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون » . (القصص : ٥٩)

ومن رحمة الله بخلقه ان كانت رسله — سبحانه — اليهم ، تحدثهم
بلغاتهم التي درجوا عليها فيسهل البيان والتبيين :

« وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليعين لهم » .
(ابراهيم : ٤)



وما كان خلق الله وبديع صنعه عبثا ، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا :
« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعين . لو اردنا ان نتخذ لها
لائخناها من لدنا ان كنا فاعلين » . (الانبياء : ١٦ - ١٧)
« ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى » .
(الاحقاف : ٣)

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ،
فويل للذين كفروا من النار » . (ص : ٢٧)

« افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم ائينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك
الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان
له به ، فانما حسابه عند ربه ، انه لا يفلق الكافرون » .
(المؤمنون : ١١٥ - ١١٧)



الأمر اذن جد خطير ، ويجب ان يحمله الانسان على هذا النحو ،
والا هلك وضاع . ولذلك حل العقاب الآلهى بمن كذب الرسالة ، واستهزأ
بالمرسلين :

« وكأين من قرية عنت عن امر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا
وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا » .
(الطلاق : ٨ - ٩)



موقف العرب من الاسلام :

استقبل عرب الجزيرة وخاصة القرشيين - أهل النبي وعشيرته - الاسلام بمثل ما استقبلت به الأقوام السابقة رسالات الله اليها، اذ تصدى لقاومتها كبراء القوم الا قليلا واستجاب لها أغلب الضعفاء .

« وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعتدين » . (سبأ : ٢٤ - ٢٥)

وتفيض آيات القرآن الكريم بالحديث عن أمم كثيرة - سبقت أمة العرب على عهد الرسول - كذبت رسل الله استكبارا ، وتمردت على ما جاءوا به من منهج الهى ، فنزل بها عذاب الله ، وترك بصماته باقية فى آثارها .

ولذلك بدعو القرآن الناس الى السير فى الأرض ، والتنقيب فى آثار السابقين ، واستقراء تاريخهم ، بهدف الموعظة والاعتبار ، لكى تتحقق لهم النجاة من مصير نظير :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكلفين . هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين » .
(آل عمران : ١٣٧ - ١٣٨)

« اولم يسيرا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم اشد منهم قوة واثارا فى الأرض ، فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بانهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فاخذهم الله ، انه قوى شديد العقاب » .
(غافر : ٢١ - ٢٢)

« وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد » .
(هود : ١٠٢)



ولقد حذر القرآن عرب صدر الاسلام من التكذيب الذى يفنقده المنطق والبرهان ، وبين لهم أن موقف الجحود الذى اتخذهوا انما يعرضهم لما أصاب

الأمم السابقة من كوارث ، تلك الأمم التي بلغت من القوة والثراء ما لم يحظ أولئك الأعراب الجاهلون الفقراء بمعشاره :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا إلا سحر مبين .

وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان تكبير .» (سبا : ٤٣ - ٤٥)

« او لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا اشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها اكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون .» (الروم : ٩)



القرآن والامم السابقة :

بدأ القرآن حديثه عن الأمم السابقة مبكرا ، فقد جاء أول ذكر لذلك فى سورة المزمل ثلاثة السور ترتيبيا فى النزول ، وكان أول من تحدث عنهم فرعون مصر الذى جاءه موسى والذى يعتبر وقومه من أحدث الجباعات الجبارة فى تاريخ الأولين :



« انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم ، كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فاخذناه اخلا وبيللا» . (المزمل : ١٥ - ١٦)

ثم تلى ذلك الحديث عن عاد وثمود ، وهى أمم أولى من شعوب شبه الجزيرة العربية التى عاشت قبل عصر فرعون بقرون :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طفوا فى البلاد . فاكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد .» (الفجر : ٦ - ١٤)



وتوالت آيات الله تتحدث عن الأولين ومصائبهم ، فذكرت أصحاب
النيل ، وهم فئة مغرورة جاءت من اليمن تبغى هدم الكعبة بيت الله . ثم
جاءت سورة النجم تذكر عادا وثمود وقوم نوح وقوم لوط .

ثم ذكرت سورتا الشمس والبروج : ثمود ، وفرعون وقومه .

حتى اذا نزلت سورة ق ، كان قد اكتمل ذكر الأولين الذين تكرر ذكرهم
في القرآن الكريم وحق عليهم القول ، والذين يرتبطون بالعرب من قريب
أو بعيد ويمكن استقراء تاريخهم .

((كذبت قبلهم قوم نوح واصحاب الرس (١) وثمود وعاد وفرعون
واخوان لوط . واصحاب الايكة (٢) وقوم تبع (٣) كل كذب الرسل فحوق
وعيب)) . (ق : ١٢ - ١٤)

ويهمنا الآن أن نلم بشيء من تاريخ بعض تلك القرون الغابرة ، قبل أن
ندرس كيفية تدميرها حسبنا ينبتنا به ما تيسر لنا من معلومات .



من التاريخ :

يقول المؤرخ الايطالى موسكاتى : منذ حوالي القرن الخامس قبل
الميلاد بدأ يظهر على الحوائط الصخرية في شبه الجزيرة العربية آلاف من
النقوش هي عبارة عن كتابة للغة الشمال بحروف الجنوب العربى .

وتؤكد الاكتشافات الحديثة ذلك وخاصة بعثة ريكنز . وتعرف هذه
النقوش المنتشرة في وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها بالنقوش الثمودية،

(١) اصحاب الرس : قيل هم اصحاب الاخدود الذين جاء ذكرهم في سورة البروج ، وقيل
هم اصحاب القرية الذين ورد نبؤهم في سورة يس ، وقيل غير ذلك .

(٢) اصحاب الايكة : من قوم شعيب .

(٣) قوم تبع : كانت حمير - وهم من سبأ - كلما ملك فيهم ملك ، سموه تبعاً : كما يقال
فرعون لملك مصر : وكسرى لملك فارس ، وقبصر لملك الروم .

وذلك نسبة الى قبيلة ثمود التي تكلم عنها القرآن ، وكما هو مذكور ضمن هذه النقوش ذاتها ..

ويذكر فيليب حتى أن ثمود قوم عرفهم التاريخ ، فقد ذكرتهم الخطوط الأسفينية في مدونات سرجون الثانى الأشورى سنة ٧١٥ ق م وعرفهم أيضا كتاب اليونان والرومان باسم ثموداي ، والتحق بجيش بيزنطة فى القرن الخامس للميلاد فيلق من الخيالة الثمودية . أما نو عاد فقيل نهم سكنوا حضرموت القديمة

ويقول المؤرخ الفرنسى سيديو : واذا عدوت بنى قحطان وبنى اسماعيل وجدت بلاد العرب تشتمل فى غابر الأزمان على بقية من العروق الفطرية ، تغشى أخبارها طبقة كثيفة من الغموض .

وكل ما يعلم أو يفترض هو أن قوم عاد جابوا - غالبين - بقيادة شداد وللعمان ، بلاد العراق والهند قبل الميلاد بأكثر من ألفى سنة .. واستولوا على مصر فى ذلك الحين باسم الرعاة أو الهكسوس .

ويظهر أن العمالة الذين يعدون من فصيلة الهكسوس قد انتشروا فى العصور للمخالية فى جميع أجزاء بلاد العرب .. وكانت خاتمة الطواف أن تجمعوا فى شمال جزيرة العرب مع الأدوميين والمؤابيين والعمونيين واستولوا على سهول بلاد الحجر العربية وعلى سهول بلاد العرب الصحراوية المجاورة لفلسطين وسورية ، فحالوا دون دخول العبريين (الاسرائيليين) أرض كنعان (فلسطين) (١) .

هذا - ولم تكن مه هى البلاد الوحيد من بلدان الشرق الأوسط الذى تعرض لغزو الهكسوس فقد سيطروا كذلك على سوريا وجزئها الجنوبي فلسطين .. ولقد نتج عن حالة الاضطراب السياسى التى عتت لبلدان الشرق الأوسط فى تلك الحقبة من الزمن ، أن توقفت كتابة تاريخ

(١) فلسطين بين الحقائق والباطل - للمؤلف - ص ١٣٧ - ١٣٩ .

الحضارة في كل من مصر والعراق ، وساد الظلام التاريخي لبضعة قرون
وفي هذا يقول أولبريت :

لقد توقف تسجيل التاريخ في كل من مصر وبابل ، بعد أن كان تياره
يجرى متدفقا طيلة اثنا عشر قرنا من الزمان أو يزيد .. وقد وجد أن النقوش
المصرية التي كانت تستخدم في تدوين التاريخ قد توقفت منذ عام ١٥٨٠ ق.م .
كذلك فإن النقوش البابلية توقفت بعد سقوط بابل عام ١٥٣٠ ق.م واستمر
ذلك حتى حوالي عام ١٤٠٠ ق.م .

والما النقوش الآشورية فانها توقفت منذ عام ١٧٢٠ ق.م ولم تبدأ
الاحوالى عام ١٥٠٠ ق.م .

هذا الاضافة الى عدم وجود مدونات لامبراطورية الحيثيين القديمة .
وخلاصة القول هنا أن كارثة ما قد حلت بتلك الامبراطوريات القديمة
وأوقفت كتابة التاريخ بتسجيل النقوش والآثار .

وإذا أخذنا في الاعتبار ما يذكره التاريخ عن قوم عاد الجبارين الذين
سكنوا جنوب شبه الجزيرة العربية وقال عنهم سيديو أنهم غزوا مصر اسم
الهكسوس ، وغزوا كذلك الحبشة والعراق والهند حوالي الألف الثاني
قبل الميلاد ، وإذا أخذنا في الاعتبار كذلك أن هذه التواريخ القديمة تتعرض
للاختلاف في حدود ثلاثة قرون - صار من الأرجح أن تكون الكارثة التي
حلت بامبراطوريات الشرق القديمة ، والتي أشار إليها أولبريت ، قد أسهت
فيها عاد بنصيب كبير ، ان لم تكن هي المسئولة عنها بالكامل (١) .



ويصف القرآن قوم عاد بالقوة والبطش والفتوحات التي حالفهم فيها
النصر ، فيقول :

(١) فلسطين بين الحقائق والباطل - ص ١٤٦ .

« كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون . انى لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعون . وما اسالكم عليه من اجر ، ان اجرى الا على رب العالمين . اتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخلون مصانع لعلكم تغفلون . واذا بطشتم ، بطشتم جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذى امدكم بما تعلمون . امدكم بانعام وبنين . ووجنات وعيون . انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الاولين ، وما نحن بمعلمين . فكلبوه فاملاكناهم » .
 (الشعراء : ١٢٢ - ١٢٩)

ولقد كانت قوة عاد وبطشها مدعاة لغرورها الشديد ، ذلك الغرور الذى ارداها :

« فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق ، وقالوا من اشد منا قوة . او لم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة » . (فصلت : ١٥)



وماأ ثمود فتظهر كشمب قوى فى التاريخ حوالى القرن العشرين قبل الميلاد . وكانت مساكنهم بالحجر المعروفة ببدائن صالح ، فى وادى القرى بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الاحمر .

وقد زارها الاصطخرى وذكر أن بها بئر تسمى بئر ثمود .

واما قرى قوم لوط فتقع فى سهل البحر الميت بفلسطين ، واشتهر ملتها قرىنا سدوم وعمورة .. فهناك استوطن لوط قريبا من مستوطنة عمه ابراهيم - أبى الأنبياء - حين هاجرا من العراق الى فلسطين حوالى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

وأما قوم شعيب - الذين يعزفون أحيانا بأصحاب الأيكة - فهم أهل مدين التى تقع شرق خليج العقبة . وينسب المديانيون الى ابراهيم - عليه السلام - من زوجته قطورة ، التى يذكر الكتاب المقدس انه أنجب منها أبناء

كثيرين ، كانوا آباء لقبائل عربية استقرت في فلسطين وشرق الأردن وشمال غرب الجزيرة العربية .

« وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة (غير هاجر أم اسماعيل ، وسارة أم اسحاق) فولدت له : زمران ويقشان ، ومدان ، ومديان ، وبشباق وشوحا .

وولد يقشان : شبا ، وددان . وكان بنو ددان : آشوريم ، ولطوشيم ، ولأميم .

وبنو مديان : عفة ، وضر ، وحنوك ، وايداع ، والدعة .
جميع هؤلاء بنو قطورة - سفر التكوين ٢٥ : ١ - ٤ .



والآن - نرى كيف هلكت تلك الأمم واستوصلت جذورها وصارت ذكرى عابرة في التاريخ .



وسائل الدمر

لقد تنوعت وسائل التدمير الذي حل بأولئك الأولين ونجد في القرآن الكريم مجالا لأنواعها المختلفة ، كما نجد لها تفصيلا قصه الآيات البينات .

« فكلما اخلنا بنبيه : فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من اخلته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كنا إلا ليعظهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .
(المتكوت : ٤٠)



هلكى الفرق والخسف : ان قصة القرى من الهالكين واضحة تمام الوضوح ولا تحتاج الى مزيد .

فالفرقى الذين ذكرهم القرآن الكريم هم : قوم فوح الذين حل بهم الطوفان ، وفرعون وجنوده ، الذين غرقوا في مياه البحر الأحمر أثناء تعقبهم لبني اسرائيل ، حين خرجوا من مصر بقيادة موسى .

أما قارون فكان ممن خسف الله به الأرض ، وهو اسرائيلي تنكر لقومه وغرق في جمع الأموال ، وصار من ملا فرعون :

«ان قارون كان من قوم موسى فبني عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين .

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين . قال انما اوتيته على علم عندي . .

فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » . (القصص : ٧٦ - ٨١)



هلكى الحاصب : يعرف الحاصب - لغة - بأنه الريح الشديدة تثير الحصباء . ومن المعلوم ان الشعب الذى هلك بالريح هم عاد قوم هود . ان هذا ما يقرره القرآن الكريم ، ويؤكد في كثير من آياته المتتابعات .

« كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . انا ارسلنا عليهم ريحا صريرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم كانوا غبارا » . (القمر : ١٨ - ٢٠)

« فارسلنا عليهم ريحا صريرا في ايام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون » . (فصلت : ١٦)

« واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، الا تصيدوا الا الله ، انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا اجئتنا لتافكنا عن آلهتنا فاتنا بما تمننا ان كنت من الصادقين . قال انما العلم عند الله وابلفكم ما ارسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون . فلما راوه عارضا مستقبل اوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم

به ، ربح فيها عذاب اليم . تعمز كل شيء بامر ربها ، فاصبحوا لا يرى الا
ساكنهم ، كذلك نجزي القوم الجرمين » . (الأحقاف : ٢١ - ٢٥)

ويقول المفسرون : الأحقاف واد بحضرموت .. وقد أرسل الله تعالى
انى من حول بلادهم فى القرى مرسلين ومنذرين . (الا تعبدوا الا الله انى
أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين
(أجتنا لتأفكنا ..) أى لتصدنا عن آلهتنا (فاتنا بما تمدنا ..) استعجلوا
عذاب الله وعقوبته استعبادا منهم وقوعه (فلما رآه عارضا مستقبلا
توديتهم) أى لما رأوا العذاب مستقبلا اعتقدوا أنه عارض مطر ، ففرحوا
واستبشروا به وقد كانوا محلين محتاجين الى المطر قال الله تعالى (بل هو
ما استعجلتم به ..) أى العذاب الذى قلمت فاتنا بما تمدنا ان كنت من
الصادقين (١)

*

وتستمر آيات القرآن الكريم فى توكيد الهلاك بالريح فنقول :

« وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء انت عليه الا
جطلته كالرميم » . (الذاريات : ٤١ - ٤٢)

« واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال
وثمانية ايام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم اعجاز نخل خلوية .
فهل ترى لهم من باقية » . (الحاقة : ٦ - ٨)

لقد هلكت عاد بالريح .. !

انها سخرية القدر بهم أولئك الجبارين الذين غزوا امبراطوريات ،
واستعبدوا شعوبا ، وكانوا اذا بطشوا بأمة بطشوا بها جبارين وقد امتلأوا
غورا حتى أن صيحتهم الساخرة كانت : « من أشد منا قوة » .

* *

هذا - ويجب أن نفرق بين الريح ، التى غلب استخدامها فى القرآن
الكريم لتعنى القوة التى تبطش ، وبين الرياح التى جرى استخدامها كقوة

(١) تفسير ابن كثير .

من قوى الخير . فهي تثير السحاب ثم تسوقه لينزل أمطارا تحيي موات الأرض ومن عليها .

نلقده وصفه الريح التي أهلكت عاد بأنها : « الريح العقيم » ، و « ريح فيها عذاب أليم » و « ريجا صرصرا »

كذلك استخدمت الريح بنفس المعنى في آيات أخرى غير الآيات التي تحدثت عن عاد قوم هود :

« ان الذين كفروا لن تنفي عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا ، واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون .

مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصصابت حرث قوم ظللوا انفسهم فاهلكته . وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون .» .
(آل عمران : ١١٦ - ١١٧)

« مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » .

(ابراهيم : ١٨)

ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير ، او تهوى به الريح في مكان سحيق » .
(الحج : ٣١)

« يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءكم جنود ، فارسلنا عليهم ريحا و جنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » .
(الاحزاب : ٩)

ويبدو أن قلب الانسان قد غلبت عليه المادية الجامدة ، فأصبح يرى آيات الله فلا يلبث أن يهز كتفيه ، ويبيت مصرا على كفره ، بدعوى انها قوى الطبيعة المجردة تعمل عملها :

« ولئن ارسلنا ريحا فراوه مصفرا ، لفاوا من بعده يكفرون » .

(الروم : ٥١)

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » .
(الروم : ٤١)

*

أما استخدام الرياح فيما ينفع الناس فتذكره آيات كثيرة :

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى اذا اقلت سبحابا
ثقالا سقطناه لبلد ميت ، فانزلنا به الماء ، فاخرجنا به من كل الثمرات ،
كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . (الاعراف : ٥٧)

« وارسلنا الرياح لواقح ، فانزلنا من السماء ماء ، فاسقيناكموه وما
انتم له بخازنين » . (الحجر : ٢٢)

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ،
ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا اصاب به من يشاء من
عباده اذا هم يستبشرون » . (الروم : ٤٨)



هلكى الصيحة : تقرأ فى القرآن أبناء الهلكى من الأولين فنجده يخص
بالذكر منهم :

قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وقومه ، وقوم
شعيب ، وأصحاب الرس ، وقوم تبع . هلكوا بوسائل مختلفة رغم اشتراكهم
فى وصف ما حل بهم انه تدمير وهلاك ، تماما كما يحدث فى الحرب .

ان الحرب على مر العصور تعنى : التدمير والخراب والهلاك والآلام
والفساد والخزى .. الخ مهما اختلفت وسائلها . ان ذلك ما تعينه أقدم
الحروب فى التاريخ ، منذ كانت بالسهم والنبال والسيوف والدروع . .
وهو ما تعنيه أيضا الحروب الحديثة مثل حرب فيتنام (١٩٦٣ - ١٩٧٣)
وحرب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣) حيث استعمل فى الأخيرتين أكثر
أدوات التدمير فتكا وتطورا ، الا أن حرب رمضان قد تميزت بأنها أول
حرب انكرونية فى التاريخ .

لكن ثلاثا من أولئك الأقوام الأولى اشتركوا فى احدى وسائل اهلاكهم ،
الا وهى الصيحة . وكما ان وسائل التدمير فى الحرب كثيرة رغم انها تحققوا
وضعا واحدا يعنى الهلاك والخراب وما اليه ، كذلك فان اشتراك أولئك
الأقوال فى الهلاك بالصيحة لا يعنى انها الوسيلة الوحيدة التى هلكوا بها ،

لكنه يشير الى أنها قد تكون الوسيلة الرئيسية بجانب وسائل أخرى
اضافية .

*

هلكى الصيحة من القرون الأولى هم :

١ - ثمود قوم صالح ، أصحاب الحجر الذين قال فيهم القرآن الكريم :

«ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . . . فاخذتهم الصيحة مصبحين»

(الحجر : ٨٠ - ٨٣)

« فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزي
يومئذ ، ان ربك هو القوى العزيز . واخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا

في ديارهم جاثمين » .

« انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر » .

(القمر : ٣١)

٢ - ثم قوم لوط ، الذى جاءه الأمر الآلى نذيرا باهلاكهم :

«وقضينا اليه ذلك الامر : ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . . . فاخذتهم

(الحجر : ٦٦ - ٧٢)

الصيحة مشرفين » .

٣ - ثم قوم شعيب أصحاب مدين أصحاب الأيكة ، الذين طالما وقف

فيهم شعيب واعظا يقول :

« يا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح ، او

قوم هود ، او قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . .

قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا

رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزير . .

ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، واخذت

الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين » .

(هود : ٨٩ - ٩٤)

ويبدو لنا أن الصيحة هى وسيلة الهلاك النمطية ، أو هى الوسيلة الغالبة

فذلك ما نستبينه من آيات سورة « المؤمنون » حين تمرض سنة الأقسام مع

رسلهم وسنة الله في اهلاكم ، اذ تقول عقب الحديث عن اهلاك قوم نوح .

((ثم انشاننا من بعدهم قرنا آخرين . فارسلنا فيهم رسولا منهم ، ان اعدوا الله مالكم من اله غيره ، افلا تتقون . وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة وترفناهم في الحياة الدنيا ، ما هذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون . ايصدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما ، انكم مخرجون هيهات هيهات لما توقعون ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين . ان هي الا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرني بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فاخذتهم الصيحة بالحق ، فجعلناهم غشا ، فبعنا لقوم الظالمين . ثم انشاننا من بعدهم قرنا آخرين . ما تصبى من امة اجلها ، وما يستأخرون . ثم ارسلنا رسالتنا تترى ، كلما جاء امة رسولا كذبوه ، فاتعنا بعضهم بعضا . وجعلناهم احاديث فبعنا لقوم لا يؤمنون . ثم ارسلنا موسى واخاه هارون باياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وملاه ، فاستكبروا وكانوا قوما عالين .))
(المؤمنون : ٢١ - ٤٦)

ونلاحظ ان الصيحة ترتبط - عموما - بالرجفة التي تعتبر احدى نتائجها ، فقد ذكرت الرجفة كحالة اصاب ثمود قوم صالح :

((فعقروا الناقة ، وعتوا عن امر ربهم ، وقالوا يا صالح اتنا بما تعذنا ان كنت من المرسلين . فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جائمين .))
(الاعراف : ٧٧ - ٧٨)

كذلك اصاب نفس الحالة اصحاب مدين قوم شعيب -

((وقال الملا الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذن لخاسرون فاخذتهم الرجفة ، فاصبحوا في دارهم جائمين .))
(الاعراف : ٩٠ - ٩١)

((والى مدين اخطم شعيبا ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ، وارحوا اليوم الاخر ، ولا تعثوا في الارض مفسدين . فكلبوه فاخذتهم الرجفة ، فاصبحوا في دارهم جائمين .))
(العنكبوت : ٢٦ - ٢٧)

ويقول الفخر الرازى في تفسير آية سورة العنكبوت هذه - التي تحدثت عن هلاك اصحاب مدين بالرجفة وهم الذين سبق ان تحدث القرآن

عن هلاكهم بالصحة : « ان الصيحة كانت سببا للرجفة اما لرجفة الأرض ..
واما لرجفة الأفئدة . والاضافة الى السبب لا تنافي الاضافة الى سبب
السبب .

اذ يصح أن يقال . روى فقوى ، وأن يقال : شرب فقوى « (١) .

* *

ان هذه القاعدة صحيحة وهامة ، وتقابلنا لها أمثلة كثيرة في القرآن
الكريم .

فقد ينسب الفعل الى الله ، باعتبار أن المشيئة الإلهية هي السبب الحقيقي
أو السبب الأصلي .

« هو يحيي ، ويميت ، واليه ترجعون » . (يونس : ٥٦)

« الله يتوفى الأنفس حين موتها » . (الزمر : ٤٢)

كذلك ينسب نفس الفعل الى المخلوق باعتباره السبب الظاهر ، فقد
جعلت الوفاة عملا من أعمال الملائكة :

« الذين توفاهم الملائكة - طيبين - يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة
بما كنتم تعملون » . (النحل : ٢٢)

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا
مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ،
فأولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا » . (النساء : ٩٧)

كذلك ينسب الفعل الى الحالة ذاتها التي تعشى المفعول به ، فقد اعتبر
الموت سببا في الوفاة :

« كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين
والأقربين بالعروف حقا على المتقين » . (البقرة : ١٨٠)

(١) تفسير الفخر الرازى .

« واللاتى ياتبن الفاحشة من نساتكم ، فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ،
فان شهدوا ، فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن
سبيلا » . (النساء : ١٥)

وإذا كنا لا نجد ذكرا للرجفة فى اهلاك قوم لوط فان هذا لا يعتبر سببا
كافيا لنفى الرجفة عن ملاحظتها للصيحة التى أخذتهم ، فليس من الضرورى
أن يعيد القرآن جميع الأحداث أو العناصر التى ترتبط بموقف ما ، أو قصة
معينة ، كلما جاء لها ذكر . ويمكن ملاحظة هذه السمة فى مواقف كثيرة نذكر
منها على سبيل المثال قصة نوح وقومه . فقد ذكرها القرآن الكريم بإيجاز
شديد فى آيتين اثنتين فقط ، اذ قال :

« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما
فاخذهم الطوفان وهم ظالمون . فانجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية
للعالمين » . (العنكبوت : ١٤ - ١٥)

ولا عجب فقد سبق ذكر قصة نوح وقومه تفصيلا فى سور كثيرة
سبقت نزول سورة العنكبوت منها : سورة هود التى ذكرتها فى ٢٤ آية ،
وسورة نوح باكملها التى ذكرتها فى ٢٨ آية .

وكذلك قصة فرعون وملائه مع موسى التى ذكرت تفصيلا فى آيات
كثيرة من سور كثيرة مثل سور : الأعراف والشعراء والنمل والقصص - ثم
ذكرت فى آية واحدة من سورة العنكبوت - كذلك - التى نزلت بعد تلك
السور ، وذلك فى قوله :

« وقارون ، وفرعون ، وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات
فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين » . (العنكبوت : ٢٩)

هذا - لسوف نظر الآن ما كان من تدمير أولئك الأقوام الثلاثة
هلكى « الصيحة » وذلك على ضوء ما تذكره كتب الحديث والتفسير
وما يذكره العلم الحديث .
